الفصل الخامس عشر

أوربا والمتغيرات الدولية

بعد الحرب العالمية الثانية

أولا : الوحدة الأوربية :

ظهر لزعماء أوربا بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة أن هذه الحرب قد أضعفت مركز القارة الأوربية السياسى لدرجة أنه لم يعد لها صوت مسموع لا فى المنتديات الدولية ولا فى المحافل الاقليمية او غيرها ، وأن تقسيم القارة الأوربية الى دول متعددة وكيانات صغيرة متناثرة هو أحد مظاهر ضعف هذه القارة ، وأنه لكى تسترد أوربا مكانتها فى مواجهة العملاقين الكبيرين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وينتقل اليها مركز الثقل الرئيسى فى ادارة الشئون الدولية او على الأقل لكى يكون لها حق المشاركة الفعلية فيها لابد لها ان تتكاتف من اجل بناء شخصية سياسية واقتصادية لها وزنها . ومن هنا ظهرت بعض الاتجاهات والأفكار التى تدعو الى التخلى عن فكرة السيادة القومية ، والدعوة الى الوحدة والتكاتف فظهرت حركة « أوربا المتحدة » و « المجلس الفرنسى لأوربا المتحدة » و « والمجلس الأوربى للتعاون الاقتصادى » و « الحركة الاشتراكية للولايات المتحدة الأوربية » و « المجلس العام الأوربى » ، و « الاتحاد البرلمانى الأوربى » وما الى ذلك من المجالس والهيئات التى تدعو الى الوحدة .

وتنفيذا لهذه الفكرة تم فى ١٧ مارس ١٩٤٨ م توقيع ميثاق الاتحاد الغربى الذى يضم انجلترا وفرنسا وبلجيكا وهولندا ولوكسمبرج وقد تضمن هذا الميثاق نصوصا تدعو الى التعاون بين هذه الدول فى النواحى الاقتصادية والثقافية والسياسية والاجتماعية ، هذا الى جانب ضرورة حل المنازعات التى تنشأ بين الدول الأعضاء بالطرق السلمية .

وفى عامى ١٩٤٩ — ١٩٥٣ قامت عدة محاولات لتوحيد أوربا سياسية كانت أولاها الدعوة الى انشاء مجلس أوربى ، ولكن نتيجة لاختلاف وجهات النظر بين دول أوربا تعثرت الجهود المبذولة لاقامة هذا المجلس وللتغطية على فشل هذه المحاولات برزت فى عام ١٩٥٣ فكرة انشاء منظمة سياسية أوربية تجمع شمل جميع دول أوربا فى نطاق سياسى واحد ولكن ضخامة هذا الهدف أدت فى نهاية الأمر الى تعذر تنفيذ هذه الفكرة أيضا .

ونتيجة للخلافات السياسية بين الدول الأوربية بدأت فكرة الوحدة الأوربية ترتكز على الجانب الاقتصادى لعلها تجد فيه ضالتها ، وبالفعل تلاقت المصالح الاقتصادية بين معظم دول أوربا فوقعت ألمانيا الغربية وفرنسا وايطاليا وبلجيكا وهولندا ولكسمبرج [1] اتفاقية فى روما فى ٢٥ مارس ١٩٥٧ بانشاء السوق الأوربية المشتركة وكان من أهم أهدافها ازالة الرسوم الجمركية بين الدول الأعضاء ، وكذلك القيود على الواردات والصادرات من السلع ، وحرية مرور الأشخاص بين الدول الأعضاء دون قيود ، وعدم التمييز بين مواطنى هذه الدول من ناحية شروط العمل ومستوى الأجور ، ووضع سياسة موحدة فى ميادين الزراعة والنقل ، وتنظيم الأسعار ، وانشاء بنك للاستثمارات الأوربية لتسهيل عملية التوسع الاقتصادى .

وتضم السوق الأوربية الآن عشر دول فالى جانب الدول المؤسسة انضمت بريطانيا وايرلندا والدانمرك واليونان .

وطبقا للمادة ٢٣٧ من اتفاقية روما فانه يجوز لكل دولة أوربية أن تطلب العضوية كما يجوز للدول غير الأوربية التى ترتبط بمصالح اقتصادية مع الدول الأوربية أن تحصل على عضوية الانتساب الى المجموعة الأوربية .

وتعد السوق الأوربية وسيلة ناجحة لحماية مصالح وحقوق الدول الأوربية الصغيرة ، اذ تحميها من اطماع القوى المحيطة بها وهذا يساعدها على تثبيت الاستقرار السياسى فى بلادها كما تعد قلعة اقتصادية عملاقة وقادرة على التحرك فى الطريق الذى يحقق لأوربا الرخاء .

---

(١) دوقية لوكسمبورج ملكية عدد سكانها ٣٢٠ ألف نسمة ، يتكلمون الفرنسية والألمانية ، ويتمسكون بقوميتهم أشد التمسك .

وحاليا تتجه المجموعة الأوربية الى الاندماج نحو الوحدة ، وهو الاندماج الذى يتطور يوما اثر آخر رغبة فى أن تؤدى الوحدة الاقتصادية الى تحقيق الوحدة النقدية وصولا الى الوحدة السياسية .

ان الدول الأوربية تسعى حاليا نحو بناء البيت الأوربى الواحد من أجل ايجاد ظروف مستقرة يتحقق من خلالها السلم والحفاظ على أمن أوربا .

ثانيا : عصر جورباتشوف وسياسة البيريسترويكا :

ان من ينظر الى الأوضاع الدولية قبل وصول جورباتشوف الى قمة السلطة فى الاتحاد السوفيتى يجد أن التنافس بين الكتلتين الشرقية والغربية كان ينذر بانفجار كامل .

ولكن بعد وصول جورباتشوف الى السلطة فى مارس ١٩٨٥ ، انقلبت الأمور راسا على عقب ، فانتفضت أوربا الشرقية وازالت اثقال الحكم الشمولى عن كاهلها ، وانهارت الأنظمة السياسية فيها ، وانتهت الحرب الباردة بين الشرق والغرب وحل محلها التفاهم والوئام ، وبدأ العالم يترك البندقية ليحمل مفاتيح الاقتصاد ، وانتقلت الأمور من أيدى العسكريين الى علماء الاقتصاد وخبراء الانماء .

البيريسترويكا مصطلح روسى معناه اعادة البناء :

وقد ظهر هذا المصطلح فى أعقاب تولى الرئيس السوفيتى « ميخائيل جورباتشوف » لمقاليد السلطة فى الاتحاد السوفيتى فقد أعلن عن برنامجه فى أثناء اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى وفى جلسته الموسعة فى ابريل ١٩٨٥ وسرعان ما اتخذ هذا المصطلح استراتيجية جديدة للبلاد ، ومنذ ذلك الوقت أخذ يستخدم على نطاق واسع وازداد بعد نشر جورباتشوف لكتابه البيريسترويكا .

والبيريسترويكا جاءت ضرورة ملحة من أجل انقاذ الاتحاد السوفيتى من ازماته السياسية والاقتصادية والاجتماعية الخطيرة . التى بدأت ملامحها تظهر على المجتمع السوفيتى بصورة واضحة ، وذلك عن طريق القضاء على

حالة الركود ، وايجاد آلية مضمونة لتطوير الاتحاد السوفيتى ومنحه قدرا أكبر من الديناميكية[٢] .

وتعتمد البيروسترويكا بشكل مباشر على الخروج على الجدلية الماركسية وتحويل الاتحاد السوفيتى من النظام الشمولى الى النظام الحر . والانفتاح على الغرب ، والسماح للمنتجين بقدر من الحرية فى اختيار المستوردين والتعامل معهم بحرية دون تدخل من الحكومة ، ونقل تجارة التجزئة الى القطاع الخاص وخفض النفقات العسكرية ، كما تدعو الى نزع السلاح واحلال توازن المصالح محل توازن القوى ، ورفض سيطرة الأحزاب الشيوعية على البلاد الاشتراكية .

وقد تزامنت البيروسترويكا مع التطورات السياسية فى المعسكر الشرقى، فهى ترفض استبدادية الحزب الشيوعى فى البلدان الاشتراكية .

وقد قاد جورباتشوف سياسة البيروسترويكا باقتناع وايمان بأن الوضع الاقتصادى المتردى فى الاتحاد السوفيتى يجب تداركه بعد أن فشلت الخطط الزراعية القائمة على الاشتراكية ، ونقصت المواد الغذائية وانتشرت السوق السوداء وتفشت البطالة بين أفراد المجتمع ، وازداد الخلل . فى الميزان التجارى ، وضعفت القدرة على استثمار الامكانات المتاحة لدرجة أصبح معها الاتحاد السوفيتى يستورد القمح مع أنه من أغنى المناطق الزراعية فى العالم، وذلك لاهمال الحوافز الفردية ، وكبت غريزة حب التملك لدى الانسان ، كما ضعفت امكانات الاسكان والخدمات والتموين .

والى جانب ذلك فقد انتشرت الرشوة والفساد ، وتسلط أصحاب النفوذ ، وانعدمت الحريات ، وانتهكت حقوق الانسان وانعدمت الثقة بين المواطن والمسئول ، وظهر تخلف الاتحاد السوفيتى فى مجال التكنولوجيا واضحا بالمقارنة مع الدول الأوربية .

---

(٢) ميخائيل جورباتشوف : البروسترويكا والتفكير الجديد لبلادنا والعالم أجمع — ترجمة محمد شومان وآخرون ، بيروت ، دار الفارابى ، الطبعة الثالثة ١٩٨٨ ص ٤٣ — ٤٤ .

كل ذلك عجل بسياسة البروسترويكا ، وجعل جورباتشوف يتحمل العبء الثقيل الذى تتطلبه عملية التغيير من الاقتصاد الشمولى الى الاقتصاد الحر فبدأ وكأنه يتسلق جبلا لا تبدو قمته مرئية لتكاثف السحب عليها ، ولا يدرى أحد متى سينتهى جورباتشوف من صعود الجبل حتى يسجل عمله فى سجلات التاريخ الانسانى وخاصة أن البيريسترويكا تواجه فى الوقت الراهن عددا من المشكلات السياسية والاقتصادية تهدد مسيرة الاصلاح والتغيير فى الداخل وتوشك أن تؤثر فى أجواء الوفاق على الصعيد الدولى .

ففى المجال الداخلى تعد عملية التحول الى اقتصاد السوق الحرة من أهم المشكلات التى تواجه البيريسترويكا ، كما أن تزايد المشكلات القومية داخل الاتحاد السوفيتى تمثل التحدى الأكبر لمسيرتها .

ففى داخل الاتحاد السوفيتى حوالى ١٥٠ قومية[٣] ، وتتزايد المطالب الانفصالية من جانب بعض الجمهوريات ، وهذا يهدد بمخاطر تفكك الاتحاد السوفيتى .

وقد اضطر الرئيس السوفيتى الى الدعوة لاجراء استفتاء عام على مستقبل الاتحاد السوفيتى ، واعداد مشروع معاهدة جديدة لهذا الاتحاد . أما عن المجال الخارجى فمما لا شك فيه أن مناخ الانفراج الدولى الذى أرساه الرئيس جورباتشوف كان له الدور الكبير فى انهيار حلف وارسو وابعاد شبح الحرب النووية وزوال المجابهة بين الشرق والغرب وانهاء الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقى والغربى ، والى انتهاء التحالف الايديولوجى غير المثمر وتحول المناخ السياسى العالمى الى الأفضل وتفكك أوربا الشرقية وقيام الوحدة الألمانية فى أكتوبر ١٩٩٠ واحلال توازن المصالح محل توازن القوى .

وهكذا دارت عجلة الاصلاح فى الاتحاد السوفيتى وستستمر فى الدوران

---

(٣) ميخائيل جورباتشوف : المرجع السابق ص ١٩ — ٢٥ .

مهما تكن التكاليف والتضحيات ، ويحاول جورباتشوف الآن الحصول على دعم الدول السبع الصناعية لبلاده عن طريق الحصول على مساعدات تصل قيمتها الى خمسين مليار دولار وجدولة ديون بلاده والسماح لها بالحصول على التكنولوجيا المتطورة بالاضافة الى مساعدتها فى تحويل بعض صناعاتها العسكرية الى صناعات استهلاكية حتى يتمكن من تحويل الاتحاد السوفيتى من الاقتصاد الموجه الى اقتصاد السوق الحرة .

ولقد ضايقت حركة الاصلاح التى يقودها جورباتشوف العديد من المتشددين داخل الحزب الشيوعى السوفيتى ونظروا بهلع شديد للتغيرات والاصلاحات التى ادخلها الزعيم السوفيتى على سياسة بلادهم الداخلية والخارجية ونجحوا لفترة قصيرة بمساعدة جهاز المخابرات السوفيتى الكى . جى . بى وبالتعاون مع القيادة العسكرية للقوات المسلحة ممثلة فى شخص الجنرال « بازوف » وزير الدفاع فى عزل جورباتشوف حيث اطاح انقلاب بقيادة « جينادى باناييف » فى يوم الاثنين الموافق العشرين من اغسطس ١٩٩١ بالرئيس جورباتشوف بحجة انه عاجز عن الاضطلاع بمهام منصبه لأسباب صحية ، وشكل الانقلابيون لجنة طوارىء لادارة الاتحاد السوفيتى مما خيم على عواصم العالم وخاصة الولايات المتحدة والدول الغربية حالة من الصدمة ، والذهول والاستنكار لما حدث ، كما استنكر أبناء الشعب السوفيتى وعلى رأسهم « بوريس يلتسين » رئيس برلمان روسيا الاتحادية الانقلاب ووصفوه بأنه عمل غير دستورى مما أفشل محاولة الانقلابيين التى لم تستمر سوى ثلاثة أيام وعاد جورباتشوف الى موسكو وتسلم زمام السلطة من جديد ليقود سياسته الانفتاحية .

ثالثا ــ الوحدة الألمانية ١٩٩٠ :

نتيجة للتغيرات السياسية والاستراتيجية التى حدثت فى السياسية السوفياتية بعد وصول جورباتشوف الى قمة السلطة فى الاتحاد السوفيتى بدأت ألمانيا تتطلع الى وحدتها ، وتبدى رغبتها فى انهاء التجزئة بين قسميها

والتخلص من الحكم الشيوعى فى الجزء الشرقى منها وكانت بداية الشرارة خطابا للزعيم الألمانى « هونكر » أعلن فيه تمسكه ببقاء سور برلين وبالنظام الشيوعى فى بلاده ، فأدى ذلك الى سخط الألمان الشرقيين ، وفرار بعضهم الى المانيا الغربية وبعض الدول المجاورة ، وقيام البعض الآخر بمظاهرات صاخبة للمطالبة بوحدة الوطن الألمانى وقد انتهت هذه المظاهرات بسقوط « هونكر » فى عام ١٩٨٩ واضطرار نائبه « ايجون كرينز » الى فتح منافذ سور برلين فى التاسع من نوفمبر ١٩٩٠ واعلانه ان من حق أى مواطن المانى شرقى السفر الى المانيا الغربية من كل منافذ السور ، فساعد هذا على ايقاظ الشعور بالانتماء المشترك ، وبالرغبة فى العيش المشترك بحرية ، وقد ساعد على هذا التطور أن حدة التوتر بين الشرق والغرب كانت قد خفت . ونتيجة لذلك أعلن المستشار الألمانى هيلموت كول مشروعه من أجل اقامة وحدة المانية ، كما بدأ جولات ولقاءات متعددة مع زعماء الدول الكبرى المنتصرة فى الحرب العالمية الثانية من أجل اقناعهم بقيام وحدة بين شطرى المانيا ، كما أعلن عن بدء مفاوضات بين الدولتين ، بمشاركة الدول الكبرى أطلق عليها مفاوضات (٢ + ٤) — بمعنى قيام دولتى المانيا بمفاوضات بالاشتراك مع الدول الأربع : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبريطانيا وفرنسا — وكانت هذه المفاوضات بمثابة الاطار الدولى الأساسى لقيام الوحدة الألمانية ، وانتقلت جلسات هذه المفاوضات الى عواصم اوربية متعددة منها : لندن وباريس وبون وموسكو وبرلين ، وفى آخر هذه الجلسات تم التوقيع فى موسكو على اتفاق السيادة الألمانية فى الثانى عشر من سبتمبر ١٩٩٠ فأعطى الحلفاء لألمانيا السيادة المطلقة فى تصريف شئونها ، وتنازلوا عن كافة امتيازاتهم التى تحققت لهم فيها بعد الحرب العالمية الثانية .

وفى أعقاب هذه التطورات اقترح « المستشار كول » عقد مفاوضات بين شطرى المانيا من أجل مناقشة الوحدة النقدية والاقتصادية بينهما ، وانتهت المفاوضات باعتماد المارك الألمانى عملة وحيدة للتعامل بها بينهما ،

وأجريت أول انتخابات حرة فى المـانيا الشرقية لاستطلاع رأى الناس فى الوحدة مع المـانيا الغربية وكانت النتيجة مباركة هذه الوحدة .

وبعد مفاوضات طويلة بين الحكومتين اتفق على أن يكون الثالث من اكتوبر ١٩٩٠ هو موعد انضمام المـانيا الشرقية الى المـانيا الغربيـة فى دولة موحدة . وهكذا بعد حوالى خمس وأربعين سنة من التقسيم حقق حلم الألمـان بقيام المـانيا الموحدة ، دون حرب أو عنف ، وأصبحت المانيا الموحدة حقيقة واقعة ترمز الى عصر جديد ، وفكر جديد يسـود عالمنا المعاصر ، ويضع حجر الأساس لحقبة تاريخية جديدة فى النظام الدولى يتجـاوز فيها العـالم كل أشـكال الدكتاتورية والاسـتعباد والاضطهاد والتقسيم .

وهكذا كانت المتغيرات التاريخية التى حدثت فى المـانيا الشرقيـة وأدت الى وحدة الشطرين ، نتيجـة لجهـود جورباتشوف الاصلاحيـة الشجاعة ، والمجهـودات التى بذلها المستشـار الألمـانى هليموت كول ووزير خارجيته جينشر .

وعلى الرغم من الصعوبات والمعوقات الداخلية التى تعترض هـذه الوحدة نتيجة للالتزامات الضخمـة التى نتجت من عملية توحيـد نظامين اقتصاديين واجتماعيين متناقضين تماما والالتزامات المالية التى تعهدت بها المـانيا الغربيـة للاتحـاد السوفيتى وغـيره بتمويـل انسحاب القوات السوفيتية من المـانيا الديمقراطية بمبلغ ١٢ مليار مارك ، فاننا نعتقد أن الشعب الألمـانى قادر على التغلب على هذه الصعوبات والمعوقات .

وليس ببعيد أن تصبح المـانيا الدولة السادسة من الدول الدائمـة العضوية فى مجلس الأمن ، وان يكون لها دور قيادى فى منظمة الأمم المتحدة ، وفى اقرار السـلام العالمى .

وهكذا يتضح أن سياسة الرئيس جورباتشوف الاصلاحية ، وتفكيره الجديد فى مجال السياسة الخارجية حقق العديد من التغيرات الجذرية فى أوربا ، فتوحدت المانيا ، وانهار حلف وارسو ، وبدأت رياح الديمقراطية تهب على وسط وشرق أوربا ، وبدأت أوربا المستقبل تأخذ وزنها ومكانها السياسى ، وتشرع فى مرحلة جديدة من التاريخ الأوربى تتميز بالانتقال من المجابهة الى التعاون وتتجه فيها الشعوب الأوربية الى العيش فى تعاون كامل لتحقيق نظام سلمى فى أوربا يتسم بالاستمرارية والاستقرار .